امبراطور المانيا والحرب

(٦)

حرب الغواصات ايضاً

عدت فاجتمعت بالبرنس بلاس في ٢ فبراير سنة ١٩١٧ . وكان قد حدث في الفترة التي مرت بين الاجتماعين حوادث ظننت انها تخفف من غلوائه وتكسر من حدة تفاؤله ولكنه ما فتىء واثقاً بان النصر الالماني مكفول والفتح قريب . قال « انا لم نكد نبدأ حرب الغواصات التي بلا قيد . ولا مناص لانكلترا من ان تخرّ على ركبتيها في خلال ثلاثة اشهر . ويرى البعض ان هذا الامر يقود اميركا الى دخول الحرب ولكنا واثقون بانها لن تدخلها . وستسحق انكلترا ونكرهها على تسليم اسطولها الينا . وحينئذٍ فلا يسع اميركا ان تدخل الحرب وتستهدف لخطر الانكسار والخراب فدى روسيا وفرنسا معها يبتغ منها الطيش والغرور ذلك لاننا نستطيع باسطولنا واسطول انكلترا ان نهاجم نيويورك »

فدهشني كلامه حتى لم اتمالك ان ضحكت في وجهه . ولم يمض على هذا الحديث الا القليل حتى قرأت في الصحف الالمانية ان الغواصات اغرقت من بواخر الحلفاء في يوم واحد ما محمولة ١٠٠ الف طن . وما زال هذا دأب الغواصات على رواية الصحف الالمانية تغرق من بواخر الحلفاء كل يوم ما محمولة ٥٠ الف طن الى ١٢٠ الفاً حتى خفت ان يصدق البرنس ولو مرة في حياته من حيث التكهن بالحوادث المقبلة . ثم لما اطلعت على المذكرة التي بعث بها فون زيرمان (وزير الخارجية الالمانية) الى فون ايخارد (معتمد المكسيك) وفيها يقول « ان حرب الغواصات ستكره انكلترا على طلب الصلح بعد بضعة اشهر » زدت تصديقاً لاقوال البرنس واعجاباً بآرائه الصائبة ولكنني لا اعلم هل استمد تفاؤله من الامبراطور او ان الامبراطور استمد بعض تفاؤله منه . ومهما يكن من ذلك فقد كان رأيهما واحداً في معظم المسائل وخطتاً

مذكرة الصلح الالمانية

زار في البرنس بلاس بعدما اصدر الامبراطور مذكرة الصلح الاولى ورفضها الحلفاء لعلمهم بغرضه الحقيقي منها فكانت هذه المذكرة محور حديثنا طبعاً . قال « لقد رفض الحلفاء المذكرة فلم يدهشنا ذلك لاننا كنا ننتظره ونتمناه . ولو لم يرفضوها لشددنا في شروطنا الى حدّ ان نضطرهم الى رفضها . وسواء كان هذا او ذاك فانها جاءت بالغرض المرسوم منها فانها اوقعت اهل الشأن من الانكليز والفرنسويين في ماء حارّ وهم يحاولون ان يعللوا لقومهم رفضهم عقد الصلح مع المانيا في حين ان المانيا راغبة فيه . وبهذه الطريقة يمكننا القاء بذور الشقاق بين الحلفاء سعياً في التفرقة بينهم . اما روسيا فذاهبة على كل حال اذ ستحدث فيها ثورة فتتمكن حينئذٍ من توجيه قواتنا كلها الى الميدان الغربي وسحق العدوّ فيه . اني ظالما احببت انكلترا ولكن لويد جورج عامل على تخريبها والآن سنراه في شغل شاغل وهو يبسط الاسباب التي تحملهُ على عدم عقد الصلح »

وزار في الامبراطور بعد ذلك بقليل وفاه عاد البرنس تقريباً . قال « اننا اوقعنا الحكومتين الانكليزية والفرنسوية في ورطة جميلة وهما تحاولان ان تشرحا لقومهما الاسباب التي تمنعهما من عقد الصلح » . ثم ضحك مقهقهاً وقال « ألا ترى كيف تتميزان غيظاً من مفاجأتنا اياهما على هذه الصورة » . وقد كانت المانيا تميل من صميم قلبها الى عقد المؤتمر الاشتراكي في ستوكهلم ولكن حكومات الحلفاء كانت ادهى واحذر من ان تقع في هذه الحبالة فمنعت المندوبين الاشتراكيين من اقوامها السفر الى ستوكهلم

اميركا لا تحارب

بعدما شهرت اميركا الحرب على المانيا اعترف البرنس بلاس بان ما تكهن به عن عدم دخولها الحرب لم يصب المرمى . قال « اعترف بانهُ لم يخطر على بالنا ان اميركا تدخل الحرب ولكنها لا تحارب على كل حال . فانها دخلت الحرب محافظة على شرفها وربما اغتنمت هذه الفرصة لتنظيم جيش تستخدمهُ فيما بعد لمحاربة اليابان ولكنها لا تحارب في اوربا اذ ليس عندها بواخر لنقل رجالها والبواخر لا تبنى في يوم وليلته كما تعلم »

ولكن الحوادث كذّبت تكهن البرنس هذا ايضاً . والدفاعهُ هذا الاندفاع في تفاؤلهِ يذكرني مثلاً سار في برلين مدة الحرب وهو قولهم « ان اهل برلين كثيرو التفاؤل والغمّ . واهل فينا كثيرو التشاؤم والطرب »

على ان البرنس كان اكثر صدقاً من الامبراطور في مسئلة لا أرى غنىً عن الاشارة اليها هنا وهي مسئلة الشكوى من اميركا لامدادها الحلفاء بالمال والذخيرة. فقد شكا الامبراطور منها مرّ الشكوى واطال في عتابها اما البرنس فقال لي في حديث معهُ « ليس لنا رجل نقف عليها في هذه المسئلة (اي لا عذر لنا) . فقد ارسلنا الى الامم التي تحاربت في العشرين سنة الماضية من الذخيرة اكثر مما ارسلت اربع دول اخرى مجتمعة »

اقوال دمقراطية

ان البرنس بلاس المانيٌّ فيّ في اعتقاده بان القوة تصير حقًّا وبان « المانيا فوق الكلّ » عاطفة سامية ومع ذلك ففيهِ صفات تميزهُ على سائر الرجال الذين من ضربهِ . فقد شكوت اليهِ مرة من ان امراء الاسرة المالكة كثيراً ما يوقعون الخلل في نظام عيادتي من غير ان يعلموني بذلك قبلاً . فقال لي « ان صبرك على هذه الحالة من الجهل والحمق . نعم لا بأس من احتمال الامبراطور والامبراطورة وما يحقّ لهما يحق لولي العهد وقرينتهِ على ما أرى . اما سائر الامراء والاعيان فلو كنت مكانك ما سمحت لهم بالتصدي لمواقيت عيادتي : وقد يصخبون ويلغطون في بادىء الامر ولكنهم لا يلبثون ان يكتوا » . وهذا الكلام لم اكد اسمع مثلهُ من برنس المانيٍ

البرنس والملك ادورد

علمت مما تقدم ان البرنس من اقرب المقربين الى الامبراطور ولكن بالرغم من هذا كلهِ حامت حول البرنس قرينتهِ اشاعات مقلقة سهل انتشارها كونها انكليزية الاصل . ففي سنة ١٩١٠ زار الملك ادورد برلين اي قبل وفاتهِ بقليل فرض فجأة في خلال استقبال حافل وكانت البرنس اول من هبّ لاغاثتهِ وعرفت ما يجب ان تعمل لهُ لانها تعلمت التمريض في حداثتها . فلما عرتهُ النوبة كشفت عن صدرهِ لتسهيل التنفس عليهِ . وقيل حينئذٍ ان حضور ذهنها وسعة حيلتها

هما اللذان خلصا حياة الملك . وتداول الناس اشاعات مآلها انهُ لو مات الملك على اثر تلك النوبة لوقعت الحرب بين انكلترا والمانيا لا محالة لان برلين لا بدّ ان تلام على موتهِ ولكن لما كان الملك قد مرض في السفارة البريطانية فلا محلّ لمثل هذه التهمة

ومهما يكن من ذلك فان البرنس اتهمت بانها جاسوسة وقيل انهُ قبض عليها وقائلو هذا القول استشهدوا على صحتهِ بانها لم تعد ترى في القصر الامبراطوري. والحقيقة انها كانت تمرّض في مستشفيات الصليب الاحمر . وفي ذات يوم جاءتني بلباس ممرضة فذكرت لها ما يشاع عنها فضحكت وطلبت مني ان اعيد هذه الاشاعات على مسمع زوجها عند زيارتهِ اياي . وشاعت بعد ذلك اشاعة اخرى بان البرنس زوجها وجد معها اوراقاً تثبت الجرم عليها وانهُ قتلها بيدهِ . والذي جعل الناس يصدّقون هذه الاشاعات ما عُرف واشتهر من ان السيدات الانكليزيات المتزوجات في المانيا لم يتمالكن من التظاهر بالميل الى الحلفاء ولو كنّ قرينات اعاظم الالمان . ويسوءني اني لا استطيع ان اقول مثل هذا القول عن السيدات الاميركيات زوجات اعيان الالمان . وربما كان هناك شذوذ ولكن مما يوجب الاسف انهُ لم تحُم حول سيدة اميركية متزوجة المانيًا اقل شبهة في ميلها عن المانيا ومعظم هؤلاء السيدات اللواتي اجتمعت بهنّ كنّ اكثر ميلاً الى المانيا من ازواجهنّ الالمان

آراء الامبراطور

لا احد يكلم الامبراطور ما لم يكلمهُ الامبراطور قبلاً . ولما كانت آراؤهُ في معظم المسائل آراء معينة لا تتغير ولا يقبل معارضة فيها فاكان خطأً منها يبقى كذلك. وكان مستشاروهُ يفضلون ان يتركوهُ وشأنهُ في خطإه على ان يتهدفوا لغضبهِ بمحاولة اصلاح ذلك الخطإ . ولولا ما فطر عليهِ من اكثار المسائل لكانت الموارد التي يستمد منها معارفهُ قليلة جداً

على انهُ ليس ثمة ريب في سعة اطلاعهِ على المسائل الجارية ومعرفتهِ لكبار الرجال اصحاب المناصب الرفيعة في العالم كلهِ . سألتهُ مرة ما هي الصحف التي تقرأها حتى اراك محيطاً بجميع ما يجري من الشؤون الهامة في العالمين فاخبرني انهُ عهد الى احد كتابهِ في اقتطاع كل الانباء المهمة من الصحف الكبرى وعرضها عليهِ

انتخاب ولسن

كان الامبراطور يهتم كثيراً بالشؤون الاميركية ويتتبع سيرة كبار الاميركيين مع تظاهره باحتقار شكل حكومتنا. وليس ببعيد انهُ كان يتوهم في نفسهِ المقدرة على التأثير في الانتخابات الاميركية بحمل الالمان الاميركيين على التصويت للمرشح الذي يريدهُ . وانما درس اخلاق كبار رجالنا ليعلم ايٌّ منهم انفع لالمانيا في المنصب الذي يتولاهُ . ولما رشح المستر ولسن لرآسة الجمهورية كان الامبراطور واثقاً بانهُ لا ينتخب . وربما كان سبب هذه الثقة ان روزفلت كان احد مزاحمي ولسن على الرآسة وكان الامبراطور يعجب بهِ كلّ الاعجاب فاعماهُ اعجابهُ هذا عن رؤية السند المكين الذي كان ولسن يستند اليهِ . ولكن لا مشاحة في ان بين تلك الاسباب عدم تمرس ولسن بشؤون السياسة الدولية فرأى الامبراطور ان هذا وحدهُ كافٍ لاقصائهِ عن المنصب الرفيع الذي رشح لهُ . وقد اجتمعت بهِ بعد انتخاب المستر ولسن فقال لي « اني شديد الدهشة لنتيجة الانتخاب اذ لم يجل في خاطري ان الجهل يقود قومكم الى انتخاب استاذ كلية رئيساً عليهم . وماذا عسى الاستاذ ان يعرف عن السياسة الدولية ودخائل السياسة »

ولست ارتاب البتة في ان الامبراطور تصور الرئيس كما يتصور اي استاذ الماني — تصورهُ رجلاً كثير الدرس والمطالعة قليل المطامع لا رجاء لهُ ولا رغبة في ان يكتسب اكثر من مئتي جنيه في سنتهِ ولا شوق فيهِ الى المناصب العمومية ينفق زيت مصباحهِ كل ليلة على مطالعة المجلدات الضخمة التي مصحت من طول المدى وفرط البلى وهو لا يدري بما يجري حولهُ . فالامبراطور ظنّ ولا ريب ان اميركا انتخبت رجلاً مثل هذا لرياستها فدهشتهُ والحالة هذه كانت طبيعية لا يلام عليها كثيراً

شؤون المكسيك

لما ارسل ولسن خمسة آلاف جندي الى فيراكروز ظنّ الامبراطور انهُ جاوز بذلك الحدود فقال « ايّ حقّ لولسن في التصدي لشؤون المكسيك الداخلية . لمَ لا يترك القوم يتقاتلون الى النهاية . هذه شؤونهم ولا شأن لهُ فيها » . وكان لالمانيا مصالح مالية كثيرة في المكسيك فلذلك نظرت بعين الاستياء الى كل حركة

من حركات هناك . فلما قامت الحرب العظمى بذل الامبراطور كل جهد لحمل اميركا على الدخول في الشؤون الدولية بشرط ان تتألف معهُ . وقد رأيتهُ حينئذٍ فقال لي « يجب عليكم ان تغتنموا هذه الفرصة وتضموا كندا والمكسيك الى بلادكم . ألا يرى رئيسكم هذه الفرصة السانحة للانضمام الينا وسحق انكلترا . فان اسطول من جانب واسطول اميركا من الجانب الآخر كفيلان بابادة قوة انكلترا البحرية . هذه فرصة اميركا العظمى لسيادة نصف الكرة الغربي فالواجب على رئيسكم ان يراها ويغتنمها فيضم كندا والمكسيك الى اميركا »

اهانة ولسن

فلما تطاولت الحرب وجاءت الانباء بان اميركا ترسل الميرة والذخيرة تترى الى الحلفاء عيل صبر الامبراطور على ولسن ولم أكد اجتمع بهِ حتى أطال في عتابهِ وبالغ في تعنيفهِ . قال لي مرة « ان ضباطي يتميزون غيظاً من سلوك اميركا حتى ليتعذر عليَّ ان اكبح جماحهم طويلاً » . ولما شهرت اليابان الحرب عليهِ سأل قائلاً « ترى ما يخطر ببال رئيسكم وقد سمح لامة صفراء بمهاجمة امة بيضاء . ولكن ماذا ينتظر المرء من استاذ تولى قيادة امه » . وقال في حديث آخر « ان ولسن في ايدي رجال بورصة ول ستريت »

على ان احدّ ما فاه بهِ من قوارص الكلام على ولسن كان بعد دخول اميركا الحرب . فاني كنت قد دعيت لمعالجتهِ في مركز رآسة اركان الحرب فلما دخل الغرفة كان النيط آخذاً منهُ مأخذهُ وكانت الامبراطورة معهُ فحاولت تعليل ما بهِ بقولها انهُ قليل النوم كثير الاضطراب وطلبت مني ان اطالجهُ برفق ثم التفتت اليهِ وحاولت تسكين ثائرهِ ولكنهُ طلب منها ان تخرج من الغرفة واستنكر تظاهرها امامي بتطبيب خاطرهِ والترفيه عنهُ . فلما فرغت من معالجتهِ وهممت بالذهاب دنا مني وقال « يا دايفز ان ولسن من شرّ الشام » . فاحمرّ وجهي غيظاً من اهانة الرئيس فلما رأى الامبراطور ذلك مني ربت كتفي بيدهِ واعتذر بقولهِ « العفو يا دايفز . انا اعلم انك اميركي فارجو العفو على ايلام عواطفك ولكن لو كنت تعلم لتأكدت ان رئيسكم من شرّ الشام . ومتى جاء دور جزّ الرقاب فان ولسن يكون الاول في ذلك »

ولست ادري مرادهُ بجزّ الرقاب . ولعلّ ضميرهُ بدأ يخزهُ فرأى انه اذا انفضحت الحقيقة ناصعة فان جزّ الرقاب يكون نصيبهُ ولكن غيظهُ من ولسن ومن ان خطتهُ هذه ستقضي ان اخفاق جميع مشروعاتهِ وتدابيرهِ حملهُ ان يتمنى لولسن نصيباً مثل نصيبهِ وان يكون السابق اليهِ

تفاؤل الامبراطور

كلما اشرقت الشمس للامبراطور زاد تيمنهُ بالحوادث زيادة جعلتهُ يتعامى عن السحب المكفهرة المتلبدة في الافق . مثال ذلك انهُ بعد تضعضع الجيش الايطالي المشهور طرب لانتصار جيوشهِ في هذا الميدان حتى عاد لا يرى ان اميركا تعدُّ لهُ الصاعقة التي ستضربهُ بها اعداداً بطيئاً غير انهُ اكيد. قال لي في ذلك الحين « ما احمق رئيسكم اذ اقتادكم الى هذه الحرب . وسيرى الاميركيون الآن ولكن بعد فوات الاوان عظم جهلهم اذ انتخبوا استاذاً ليكون رئيساً عليهم . ولا بدَّ لهم من دفع النفقة »

وآخر مرة سمعتهُ يذكر الرئيس فيها كانت في خريف سنة ١٩١٧ بعد ما ارسل الرئيس ردّهُ على مذكرة البابا السلمية . قال « ان ولسن رجل خيالي . ورجل هذا شأنهُ لا ينجز عملاً . فقد دخل الحرب ليكون لهُ مقعد حول مائدة الصلح ولكنهُ لن يجلس حولها . وانا سأمنعهُ من ذلك » . وقال عن مذكرات ولسن السلمية التي اصدرها قبل دخول اميركا الحرب « ارى انني مصيب وغيري يرون انهم مصيبون — ارى ان المال كلهُ بات في يد اميركا . فاذا كان ولسن يروم الصلح حقيقة فليدفع النفقة وليهيء الغرامات وحينئذٍ تنتهي الحرب مسئلة سهلة ولا اسهل منها »

الامبراطور وروزفلت

لم يكن الامبراطور قبل الحرب يعجب برجل من رجال العصر الحديث اعجابهُ بالمستر روزفلت . وقد كان مقتنعاً بانهُ حال دون الحرب بين اميركا واليابان بارسالهِ الاسطول الاميركي في سياحتهِ المشهورة حول الارض فأرى بذلك خصمهُ استعداد الاسطول للطوارىء . وهذه الضربة البكر في السياسة كما سماها الامبراطور كانت عبثاً تتظاهر بالقوة على منوال يحبهُ ولطالما اشار اليها في احاديثهِ.

قال مرة « ان اعظم ما اعجب به في المستر روزفلت شجاعتهُ الادبية التي ما رأيت لها مثيلاً في رجل اعرفهُ » . ولم يقل من اعجابهِ به انهُ كان قد ارسل في ايام رياستهِ بلاغاً تلغرافياً الى الاسطول الالماني الراسي في مياه فنزويلا بان يبرح تلك المياه في ٢٤ ساعة

وقد سمعتهُ غير مرة يطري روزفلت كل اطراء ولا اشكُّ البتة في صدقهِ واخلاصهِ . ولكن لشدَّ ما كانت خيبتهُ بعد نشوب الحرب لما رأى ان رأي روزفلت فيها مخالف لرأيهِ رغم حسن ظنهِ بهِ وما افاض عليهِ من المدح والثناء . قال لي ذات يوم « يا لعظم خيبتي في المستر روزفلت . فان وقوفهُ هذا الموقف بعد المعاملة التي عاملتهُ بها انا وامرأتي ايام نزل ضيفاً علينا لهو موقف خالٍ من الشهامة والكياسة . فقد استعرضت جيشي استعراضاً عظيماً امامهُ وهذا اعظم شرف في طاقتي منحهُ اياهُ ولم تمنحهُ شخصاً قبلهُ . فانهُ لم يكن حينئذٍ رئيساً وكنت اعجب بهِ كثيراً . اما الآن فأرى انهُ فقد صوابهُ ولم يدر في خلدي انهُ ينقلب علينا الى هذا الحد وعلى هذا المنوال » . والظاهر انهُ غاب عنهُ ان كلَّ اميركي غيور على وطنهِ لا يسعهُ الاَّ الولاء لهُ

الامبراطور والاغنياء الاميركيون

ندر ان قال الامبراطور قولة خير في اصحاب الملايين من الاميركيين مع اعترافهِ بانهُ لا يستنكف قبول الريالات الاميركية . قال لي مرة « ان الطريقة التي جمع بها مورغان وغيرهُ من كبار اصحاب الملايين ثرواتهم لهي طريقة سيئة جدًّا وهي كذلك مجلبة للاخطار لانها مجلبة للاشتراكية » . قال هذا القول كأن الاشتراكية ما زكت ولا سمت على الامتيازات التي يتمتع بها التاج الالماني . وغريب من الامبراطور ان يرى القذى في عين آخر ولا يرى الخشبة في عينهِ هو . فان من اعظم الشكايات التي شكاها الاشتراكيون منذ سنين هي فقد المساواة في الضرائب على عهد آل هوهنزلرن . وما زالوا منذ زمان طويل يصخبون ويطالبون بالغاء القوانين التي تستثني الاسرة المالكة والاعيان من دفع الضرائب ولا بد ان تجاب مطالبهم بعد وقت وجيز

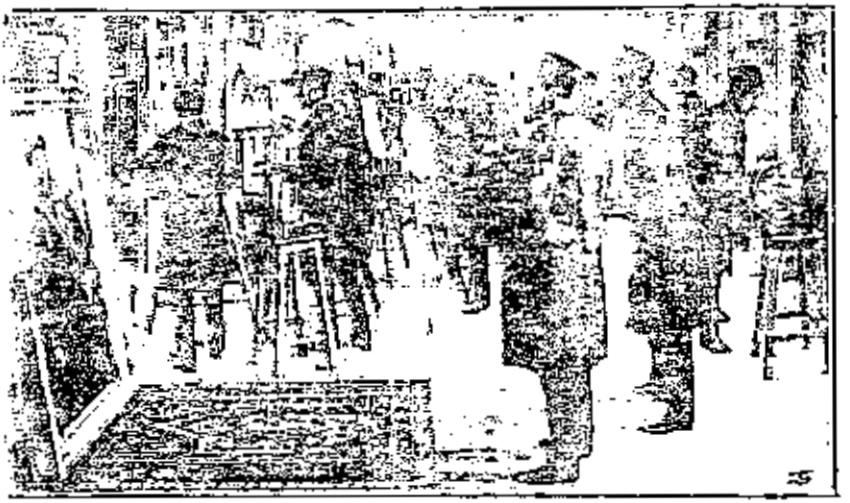

الأمير أحمد فؤاد في مدرسة الفنون يفحص صورة أحد تلاميذه بمصور الفنان

الأمير أحمد فؤاد وهو يشاهد مجموعة من التلاميذ

تصفحه ورق ٩